

لكتاب المقدس

القديس يوحنا الدمشقي

إنه الله الأحد المنادي به في العهدين، القديم منهما والجديد، والمسبح والممجد في ثالوثه هو المقصود في قول الرب: "أنا لم أت لأحلّ الناموس والأنبياء لكن لأتمّم" (متى 5:17). فأبّه هو نفسه الذي صنع خلاصنا الذي من أجله كان كلّ كتاب وكلّ سرّ. ويقول الربّ أيضاً: "فتشوا الكتب، فإنّها هي نفسها تشهد من أجلي". ويقول الرسول: "إنّ الله الذي كلّم الآباء قديماً في الأنبياء كلاماً متفرّق الأجزاء، مختلف الأنواع، كلّمنا في هذه الأيام بالابن" (عبرانيين 1:1-2). فبالروح القدس إذاً قد تكلم الناموس والأنبياء والإنجيليون والرسل والرعاة والمعلّمون.

إذاً فإنّ "الكتاب كلّهُ قد أوحى به من الله. ومن ثمّ هو مفيد... (2تيموثاوس 3:16). لذلك يحسن وبفيد جداً البحث في الكتب الإلهية، فكما الشجرة المغروسة على مجاري المياه هي النفس أيضاً المرتوية من الكتاب الإلهي، فنتغذى وتأتي بثمر ناضج، أعني الإيمان المستقيم، وتزهو بأوراقها الدائمة الاخضرار أعني بها أعمالها المرضية لله. ونحن إذا سرنا على هدى من الكتاب المقدس نخطو في طريق السيرة الفاضلة والاستنارة الصافية، فنجد فيها مدعاةً لكلّ فضيلة ونفوراً من كلّ رذيلة. وعليه إذا كنّا نحبّ معرفتها تكثّر فينا هذه المعرفة. وبالاجتهد والكّد والنعمة التي يعطيناها الله يتمّ إصلاح كلّ شيء، "لأنّ كلّ من يسأل يُعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يُفتّح له" (لوقا 11:10). فنقرع إذاً باب الكتب المقدسة، الفردوس الأبهي الذكي الرائحة الفائقة العذوبة الجزيل الجمال والمطرب أذاننا بمختلف أنغام طيوره العقلية اللابسة الله، النافذ إلى قلبنا فيعزيه في حزنه ويريحه في غضبه ويملاه فرحاً لا يزول. وهو الذي يجعل ذهننا على متن الحمامة الإلهية المذهب والبراق (مزور 14:76) بجناحيها الساطعي الضياء سراً على الابن الوحيد وارث زارع الكرم (متى 21:38) العقلي، وبالابن تبلغ به إلى الأب، أبي الأنوار. وهنا فلنقرع بلا تباطؤ وبلجاجة كبرى وثبات. ولا نكفّ عن أن نقرع. وهكذا يُفتّح لنا. وإذا قرأنا مرّة ومرّتين ولم نفهم ما نقرأه فلا نملّ من أن نقرع، بل فلنثبّت ونتأمّل ونسأل، لأنّه قال: "سلّ أباك يبنّبك وأشياخك يحدّثونك" (تثنية 7:32)، "فليس العلم في جميع الناس" (1كورنثوس 7:8). لنعترف إذاً من ينبوع الفردوس مياهاً جارية صافية "تنبع إلى الحياة الأبدية" (يوحنا 4:14). لننتعمّن من دون أن نرتوي من التنعّم، لأنّ النعمة في الكتب المقدسة مجانيّة. وإذا استطعنا أن نجني فائدة ما ممّا في خارج هذه الكتب فليس ذلك من المحاذير. ولكن في ذلك صيارفة حاذقين نحفظ لنا بالذهب المعروف والصافي ونرمي منه ما كان معشوشاً. لناخذن من الكلام أجوده ونلق إلى الكلاب ألّهتهم الهزيلة وخرافاتهم الغريبة. فإننا لنستطيع أن نقنّي منها قوّة ضدّهم....

وأسفار العهد الجديد هي الأناجيل الأربعة لمتّى ومرقس ولوقا ويوحنا، وأعمال القديسين للوقا الإنجيلي، والرسائل الجامعة السبع: واحدة ليعقوب واثنان لبطرس وثلاث ليوحنا وواحدة ليهوذا، ورسائل بولس الأربع عشرة ورؤيا يوحنا الإنجيلي، وقوانين الرسل القديسين بواسطة إكليمنضس.

مختارات آباءية حول الكتاب المقدس

- القديس إيبوليتس
 - في الفردوس كانت توجد شجرة المعرفة وشجرة الحياة. واليوم أيضاً قد نُصبت شجرتان في الكنيسة: الناموس والكلمة؛ لأن معرفة الخطيئة قد أتت بالناموس، أما بالكلمة فقد أُعطيت الحياة ومُنح غفران الخطايا.
- أوريجانس
 - علينا أن نحيط علماً بأن البواكير والثمار الأولى ليست الشيء نفسه، إذ تقدّم البواكير بعد الحصاد وأما الثمار الأولى فقبله. وعليه، فليس من الخطأ القول بأن بين الأسفار المنقولة إلينا عبر التقليد والمعبرة إلهية في كنائس الله كافة، يشكل ناموس موسى الثمار الأولى والإنجيل البواكير؛ إذ بعد كلّ ثمار الأنبياء الذين تعاقبوا إلى الرب يسوع بزغ "الكلمة" الكامل. فالعهد القديم كله إنما يشكل بداية للإنجيل. بل إن الكتاب المقدس كله إنجيل؛ فإن كان الإنجيل تبشيراً بالخيرات وإن كان جميع من سبقوا حضور المسيح بالجسد قد بشرُوا بالمسيح الذي هو كل الخيرات، فأقولهم جميعاً تشكل إذاً قسماً من الإنجيل بطريقة ما. وإن كان المخلص يُعيدنا إلى الكتب (أنظر يو 5: 19) لأنها تشهد له، فهو لا يُعيدنا إلى هذا دون ذلك، بل إلى كلّ الكتب التي تبشّر به. ذلك أن كل التعليم الذي وصلنا في شأنه قد أُجمل في كلّ واحد.
- القديس باسيليوس الكبير
 - القول بأنّ ثمة عبارة باطلة في الكتاب هو تجديد رهيب.
- القديس أناسيوس الكبير
 - الأسفار الملهمة كانت كافية لبسط الحقيقة.
 - من أراد أن يفهم فكر كتاب الوحي [الإلهي] عليه أولاً أن يرحض نفسه ويظهرها بقداسة السيرة، وأن يقتدي من ثم بالقديسين أنفسهم؛ وذلك في سلوك مماثل لسلوكهم.
- القديس مرقس الناسك
 - إن من لا يعتبرون أنفسهم مدينين بالنسبة إلى كلّ وصية من وصايا المسيح إنما يقرؤون شريعة الله بطريقة جسدية دونما فهم، لا لما يقولون ولا لما يؤكّدون بشدة (أنظر 1 تيم: 1: 7).
- القديس رومانوس
 - لنفتش في الكتاب المقدس عما يهب من النعمة وعمّا يتضمّن من المعنى، إذ إنه الدليل الذي يُفضي بالجميع إلى الرجاء الذي لا يبلى: هذه هي فائدة كلّ الكتاب الموحى به من الله. فلنخرنّ إذاً عند قدمي المسيح مخلصنا ولنصرخ إليه بورع قائلين: "يا ملك الملوك ومحّب البشر، امنح المعرفة للجميع، وأرشدنا في سبيل وصاياك لنعرف طريق الملكوت، إذ هي التي نصبو إلى سلوكها ليكون لنا أيضاً الإكليل غير الفاسد.
- القديس يوحنا كاسيانوس
 - يجب أن تكون لدينا الحمية في حفظ مجموعة الأسفار المقدسة، وأن نستعيدنا في ذاكرتنا بلا انقطاع. إذ فيما يكون الانتباه منشغلاً بالقراءة والدرس، لا يعود للأفكار السيئة سبيل من بعد إلى أسر النفس في شباكها. ولكن، إن كنتم تبتغون التوصل إلى معرفة حقيقية للكتب [المقدسة]، فعجّلوا أولاً إلى اكتساب تواضع قلب راسخ. فهو

الذي يقودكم، لا إلى العِلْم الذي يَنفخ (أنظر 1كو8: 1)، بل إلى العِلْم الذي يُنير بإتمام المحبّة؛ إذ يستحيل على النفس غير المطهّرة أن تفوز بهبة العِلْم الروحي... واحنرزوا بأبلغ الاهتمام شأنًا من أن تصير حميتكم للمطالعة سببَ هلاك بادّعات باطلة.

● القديس إيلاريوس

○ إن حياة الإنسان وفكره يظلان في الضلال، أو بالحريّ في ليل عدم الإحساس، ما داما ملطّخين بمعاشرتهما للجسد، وبيقيان من ثمّ في لجة الجهل بسبب ثقل الطبيعة التي يمتزجان بها... ولكن، كلّما استنار المرء بكلام الله، كلّما صار غير قادر على تحمّل ظلمات الجسد هذه وليل هذا العالم. وعليه، فلا ندعّن هذا التعليم وهذا الكلام الإلهيّ اللذين تلقيناها فينا بلا استعمالٍ وبلا جدوى كما لو تحت "المكيال" (انظر متى5: 15)، بل لننشر هذا النور في نفوسنا أولاً، ثم في جميع الأمم من خلالنا... وفي كل خطوةٍ تقوم بها نفسنا، لنستعمل كلام الله كسراج، ولكن كسراج "موقّد" دوماً، ومعدّ دوماً بفطنتنا للقيام بمهمّته.

● القديس سارافيم ساروفسكي

تتغذى النفس بكلمة الله وعلى الأخص بمطالعة العهد الجديد والمزامير. يجب أن نقرأ الإنجيل ورسائل الرسل واقفين أمام الأيقونات المقدّسة، بينما يمكننا أن نقرأ المزامير جالسين. إن الذهن يبتهج ويستنير من دراسة الكتاب المقدس. يجب أن نمرّن الذهن على الهذيق بناموس الرب حتى نرتب حياتنا بإرشاده. مفيدٌ جداً أن ندرس كلمة الله بانتباه وفي الهدوء. بانشغال كهذا مرتبطٌ بالأعمال الصالحة لن يحرمانا الله رحمته. عندما تلهج النفس بناموس الرب تمتلئ من موهبة تمييز الخير من الشر. عندما تتمّ دراسة كلمة الله في الهدوء يغرق الذهن في حقائق الكتاب المقدس، ويتقبّل القلب دفناً إلهياً. الشيء الذي إذا تمّ في الوحدة يجلب الدموع. هذه الأشياء تدفئ الإنسان كله وتملؤه بمواهب روحية تبهج الذهن والقلب بما لا يعبر عنه. وبشكل خاص أن يشدّد على الدراسة لكي يمتلك سلام النفس بحسب قول المزامير "سلام عظيم للذين يحبون ناموسك" (مزامير 118: 165).

يعلم القديس اسحق السوري: "قبل أن يتقبل المؤمن المعزي يحتاج للنصوص المقدّسة حتى يتجدد داخله لكثرة الدرس وينجذب للعمل الصالح وتحفظ نفسه من طرق الخطيئة. إنه يحتاج للنصوص المقدّسة لأنه لم يحصل بعد على قوة الروح القدس وعندما تنزل قوة الروح القدس في النفس تتربى النفس سرياً من الروح، ولا تحتاج لمساعدة من أي شيء محسوس".